في الأدب المقارن

الفـكاهـــة

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

إذا انطوت الفكاهة على صادق حكمة أو نافذ نظرة، وأودعت العبارة المحكمة اللائقة بها، كانت في الفرد دليل صفاء الذهن ولطافة الحس، وفي الأدب مظهر الرقي والحيوية، وفي الأمة عنوان التحضر ورقة الطبع. والفكاهة عند ذلك لا تقل مكانة عن أرزن الجد، بل ربما بذته وكانت مرآة لميول الفرد والمجتمع أصدق تصويراً من مرآة الجد المحض؛ والأدبان العربي والانجليزي حافلان بضروب الفكاهة وأوضاعها، يتفقان في بعضها ويفترقان في بعض آخر، تبعاً للأحوال الاجتماعية

وإذ كانت الفكاهة كما تقدم دليل التحضر ورقة الحاشية قلّت آثارها في الأدب العربي حين كان أقرب إلى البداوة زمن الجاهلية ومستهل الاسلام. ففي أدب ذلك العهد نرى آثار اللّسَن وحضور البديهة وقوة العارضة، ونخطئ مظاهر الدعابة

الفلسفة وجد ملجأ لدى الصوفية. وكثير من الأفكار الفلسفية المقوتة تبناه الصوفية وأبرزوه في صور أخرى مقبولة ولو إلى حين. وفي رأينا أنه لا يمكن أن يدرس تاريخ التفكير الفلسفي الاسلامي في العصور الأخيرة دراسة كاملة منزلاً عما كتبه المتصوفة وعلماء الكلام

بيد أن الصوفية بدورهم لم يسلموا من شرور الفلسفة وويلاتها، وما أن تفلسفوا حتى أضحوا عرضة للمحاربة والانتقام. فالسهروردي قتل بأمر صلاح الدين؛ وابن سبعين انتحر في مكة بسبب مهاجمات وجهت إليه في الغالب؛ واتهم معاصره ابن العربي بالإلحاد والزندقة من كثير من أهل السنة [1]

(يتبع) ابراهيم مدكور

(١) Mehren, Journal Asiatique, (1879), p p. 338 et suiv.
C. de Vaux, Les Penseurs de l'Islam, t. IV, p. 232.

الدعة والعبث الرقيق. وما نحسب إلا أن الرسول (ص) الذي كان يمزح ولا يقول إلا حقاً كان يمتاز من معاصريه — في جملة ما امتاز — بلطف الروح وعذوبة الدعابة، فقد أُثِرَتْ عن صحابته المقربين وخلفائه الراشدين أخبار تنبئ عن متانة الخلق وحرارة الايمان وقوة الجلد والكفاح، ولم يُؤْثَرْ عن كثير منهم براعة الدعابة ولا الميل إلى الفكاهة

فلما استوطن العرب الأمصار، واصطنعوا حياة الدعة والاستقرار، وتذوقوا الحضارة والترف، ظهرت نتائج كل ذلك في أدبهم، وكثرت الفكاهة في الشعر والنثر، بل ظهرت طوائف من المجان المتظرفين الذين يصطنعون خفة الروح ويتهكمون بالجد والجادّين من رجال العلم والدين، جاعلين شعارهم قول أحدهم ابن هانئ:

دع عنك ما جدوا به وتبطلوا وإذا لقيت أخا الحقيقة فاهزل

ومن أظهر مواضيع الفكاهة في العربية التبرم بالثقلاء، والنيل من البخلاء، ووصف الأكولين والطفيليين، والتهكم بمدّعي العربية من الموالي، وعبث المجان بالمتخشعين المتورعين، والسخرية بالمنهزمين من القواد والمقاتلين؛ وكل هذه أبواب من القول منتزعة من حياة العرب في ذلك العهد، وكلها صفات مضادة لما كان الرجل ذو المروءة الحريص على حسن الأحدوثة يتحلى به أو يحب أن يعرف عنه

وتفنن المتهكمون بالبخلاء، فتحدثوا عن وعودهم المطولة، وحجابهم الغلاظ، وهيأتهم الضئيلة: كالطيالس التي تتجنى الذنوب على الرياح، وتعرف الطريق إلى الرفاء، من كثرة ترددها عليه صباح مساء

ومن بارع التهكم بأدعياء النسبة العربية قول بشار:

ارفق بعمرو إذا حركت نِسْبَتَهُ فانه عربي من قوارير

ما زال في كير حداد يردده حتى غدا عربياً مظلم النور

ويشترك الأدبان العربي والانجليزي في أبواب من الفكاهة خاصة، لعلها تستثير روح العبث في النفس الانسانية على اختلاف الأجيال والأمم، كالتحذلق من أهل الفنون من شعراء وممثلين ومغنين والمدعين لتلك الفنون وأشباهها. فالتحذلق والادعاء سيبان خالدان من أسباب ولوع الناس بالتضحك بهما، وما يزال

المرء بخير حتى يدّعى ما ليس له ويتكلف الاغراب ؛ والنفس الانسانية بطيئة متثاقلة إلى الاعتراف بفضل الأغيار ، دع عنك الاعتراف بالفضل لمن يدعيه وليس من ذويه ؛ هناك تثور النفوس وتلجأ إلى أقسى أسلحتها وهو التهكم

فشكسبير يسخر على لسان هملت من متحذلق الممثلين فى عصره ، ويجعل الثائرين الطالبين بدم قيصر ينصرفون هنيهة عن وجهتهم إلى مهاجمة شاعر لتفاهة شعره ؛ والجاحظ يقول فى صاحب له متحذلق متعالم : « يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق منهم بسبب ، وليس فى يده من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الأدب » ، وابن الرومى أوسَعَ مَن لم يَحمَدْ من المغنين والمغنيات تهكما ، وصوّر أحدهم أقبح صورة فى قوله :

وتحسب العينُ فكّيه إذا اختلفا

عنــد التنغُّم فكَّىْ بغل طحان

وفى الأدب الانجليزى ضروب من الفكاهة منتزعة من مجتمعه الخاصة : كالتهكم بالمدعين النبل الاجتماعى ، والحُدثى النعمة ، والمتشدقين بضخم الكلمات لا يفقهون معانيها ؛ ذلك أن المجتمع الانجليزى — على كون نظامه الحكومى ديموقراطياً — هو أرستقراطى شديد التفريق بين الطبقات ، يتعالى النبلاء فيه عن الدهماء تعالياً لا يقل عن ترفعهم عن أبناء الشعوب الأخرى ، ويكاد يجعلهم أمة داخل أمة ؛ وبعض العصاميين الذين يؤثّلون ثرواتهم فى ميادين الأعمال أو فى المستعمرات يتطلعون إلى الانتظام فيهم ، ويتشبهون بهم تشبهاً يتعلق بالظواهر ويستثير السخرية . أما التشدق بضخم الكلمات فرجعه إلى تكوّن اللغة الانجليزية من أصول كثيرة أبرزها اللاتينية الوعرة الألفاظ الكبيرة المشتقات

ففى كثير من القصص والروايات الانجليزية يظهر الأشخاص المتصنعون السمو الاجتماعى المتكلفون رقة المظهر ودماثة الحديث ، والآخرون المكاثرون باطلاعهم على اللغات الكلاسية المقحمون لجافى الألفاظ فى أحاديثهم ، خالطين صحيحها بخطئها ، حتى ليقولون عكس الذى يقصدون أحياناً

وللفكاهة مجال رحب فى القصة ، حيث يتحرك الأشخاص ويعملون أعمالهم ويتبادلون الأحاديث ؛ ومن ثم تحفل القصص والروايات الانجليزية ببارع النكات ، وفكه اللفتات ، ومضحك المواقف والشخصيات ؛ ونجد الكثير من ذلك فيما قارب القصة من أوضاع فى الأدب العربى : ففى مقامات بديع الزمان ورسالة الغفران للمعرى فكاهات وسخريات هى غاية فى الامتاع والبراعة

والفكاهة من أمضى أسلحة الاصلاح الاجتماعى ؛ وقد استخدمها لهذا الغرض بعض فرسانها من الأدباء الانجليز . والمجال لها متسع فى الأدب الانجليزى ، حيث التمثيل والقصص يصوّران المجتمع وينقدانه ، وفى المجتمع الانجليزى ، حيث النقد النزيه مباح وحيث للرأى العام القول الفصل فى الحكم على الأنظمة والتقاليد . أما فى الأدب العربى فقلما اتجهت الفكاهة اتجاهاً اجتماعياً ، بل ظلت فردية كغيرها من أغراض الأدب ، إذ لم يكن الحكم المطلق الذى خضعت له الدولة العربية بمساعد على نمو النقد واشتداد ساعد الرأى العام

وهناك لون من الفكاهة يرى به المتفكه إلى ضد ما يقول : فيتقنّع بالجد وهو يبغى الهزل ، ويبدى الوقار ويخفى العبث ، ويتظاهر بالمدح والقدحَ يريد ، ويغالى فى التفخيم قاصداً التهوين . ويُدعى هذا الضرب من الفكاهة بالانجليزية irony ، وربما أمكن تسميته « التَّنَدُّر » ، والأدب الانجليزى حافل به ، ولعله يناسب الطبع الانجليزى ، وهو شديد المضاء فى أيدى الناقدين لأحوال المجتمع . ومن فرسانه المجلين (سويفت) . أما فى العربية فهذا النوع من الفكاهة نادر ؛ ولعل أصلح مثال له مقطوعة المتنبى التى نظمها حين رأى أعرابيين يتفاخران بقتل جرذ ، ومنها يقول :

وأيكما كان من خلفه ؟ فان به عضة فى الذنب

وقول بشار وقد تفاخر أمامه رجل بأنه شاعر من نسل شعراء : « إذن أنت من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً »

ويشترك الأدبان فى ضرب من الفكاهة هو هجاء المرء نفسه وتفكهه من عيوبه . على أنه فى كلا الأدبين غرض من القول متكلف ، يُطلب به التظرف ويعوزه الصدق والعمق . فالانعاء على النفس بالتثريب ليس خلقاً فى الانسان بله الأديب ، والذى يتصنع نقد نفسه لا يضع يده على مغامزه وعوراته الصحيحة ، ولا يسطر لنفسه إلا امدحاً بما يشبه الذم ، ولو رماه غيره بما رمى به نفسه طلباً للظرف لثار به وأنكر مزاعمه أشد إنكار

ولما كانت المرأة الانجليزية أكثر بروزاً في المجتمع والأدب من المرأة العربية ، فقد نالت دونها حظاً عظيماً من مداعبة الأدباء الذين أوسعوا غرائزها ومتناقضات أفعالها درساً وتصويراً . ومن أبرع من كتبوا في ذلك (بوب) الذي نظم قصيدة طويلة على طراز الملاحم الكلاسية أودعها وصفاً دقيقاً لأحوال فتاة جعلها نموذج المرأة في مجتمعه ، من احتفالها بالأزياء وتذبذبها بين المعجبين بها ، إلى كل صغيرة وكبيرة في حياتها المنزلية والخارجية في أسلوب متهكم شائق

ومن الفكاهات ما قوامه التلاعب بالألفاظ المتشابهة في النطق أو الكتابة ؛ وقد كان هذا العبث اللفظي شائعاً على عهد شكسبير الذي ضرب فيه بسهم ، ثم أهمل بعد ذلك في الانجليزية واستثقل . أما في العربية — حيث كانت للألفاظ عند الأدباء دائماً مكانة عالية — فظل هذا الضرب من التفكه مألوفاً . فأبو نواس يوافق مدعياً للنسبة العربية على انتمائه إلى طي ، ولكن مع إضافة نون وباء في أول الكلمة . ويقول في بخيل :

وما خبزه إلا كآوى يُرَى ابنه ولم يُرَ آوى في حزون ولا سهل

وقد ازدهرت الفكاهة في الشعر العربي في صدر العصر العباسي ، وبرز في مضمارها في أجيال متتالية طبقاتٌ على رأسها بشار فأبو نواس فدعبل فابن الرومي ؛ وتمتاز في شعر الأوَّلَيْن بالاستهتار ، وفي شعر الثاني بالصرامة ولذع السخرية ، وفي شعر الأخير ببراعة التصوير . وازدهرت الفكاهة في الشعر الانجليزي في العهد الكلاسي أي في أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر ، وهو العهد الذي اشتد فيه الأثر الفرنسي في الأدب والمجتمع الانجليزيين ، وكان من فحول الفكاهة فيه سويفت وبوب ودريدن

والحق أن ذلك العهد هو أشبه عهود الأدب الانجليزي بالأدب العربي ؛ ففيه انضوى الأدب حيناً تحت جناح الملكية وسار في ركاب الحاكمين ، واختلط بالسياسة وخاض غمارها ، وانغمر في جو الدنيـة وأهمل جانب الطبيعة ، وتأنق في اللفظ وأغرب في المعنى ، واحتدمت الخصومات الأدبية السياسية بين رجاله مماثلةً لما كان بين جرير والفرزدق ، وبشار وحماد ، والبديع والخوارزمي ، من مصاولات ومقارعات ؛ وولِعَ الأدباء بالوزراء والقواد ، ونشت الفكاهة واتخذها فريق سبيلا للمجون ، وفريق ذريعة للنقد الاجتماعي والاصلاح

وقد نظم دريدن أحد فحول ذلك العهد قصيدة هجاء لشاعر مزاحم له أفعمها بالتهكم المكسو بثوب الجد ، وبوّأ غريمه « عرش الغباوة » في جو من الجلبة والمراسيم والمواكب والشارات مماثل لتتويج الملوك ، وجعله يلي ذلك العرش معهوداً اليه من شاعر غبي من شعراء الجيل السابق لجيلهما . ولهذا القصيد الساخر مماثل في النثر العربي شديد الشبه به ، وإن يكن قد كُتب قبله بنحو ثمانية قرون ، أعني العهد الذي كتبه الصابي على غرار عهود الخلفاء والأمراء إلى عمالهم ، على لسان مطفل أكول إلى آخر هو المقصود بالدعابة ، وقد بدأه بقوله : « هذا ما عهد به علي بن أحمد المعروف بعليكا ، إلى علي بن عرس الموصلي حين استخلفه على إحياء سننه ، واستنابه في حفظ رسومه ، من التطفيل على أهل مدينة السلام وما يتصل بها من أرباضها وأكنافها ، ويجري معها في سوادها وأطرافها ، لما توسمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللَّقم ، وجودة الهضم »

وتتسم الفكاهة في الأدب الانجليزي على العموم بالعفة التي هي سمة الأدب كله كما سبق ذكره في كلمة سالفة ؛ أما في الأدب العربي فتهوى أحياناً في يد الهجائين إلى حضيض السباب ، وفي يد المجان المستهترين إلى وهدة الأفحاش . وتتعلق الفكاهة الانجليزية بالصفات والأخلاق والأعمال وتكشف التناقضات من آراء الناس وأقوالهم ؛ وفي العربية يتناول العبث الخَلْقَ بجانب الخُلُق . فدعابات ابن الرومي ملأى بذكر أعضاء الجسم من أنوف وأقفية ولحى ، وعيوبه من حدب وصلع وعور . ويُشَبِّهُ المعبوثُ بهم بالحيوان ، فيقول حماد وقد زعم بشار أن له جنياً يُوحي إليه :

إذا خاطب الجني قرداً مشنَّفاً فقل لخنازير الجزيرة أبشري

وفي كلا الأدبين فحول من الأدباء نأى بهم طبعهم عن الفكاهة ، وسما بهم قصدهم في الحياة عن العبث ، واتسمت آثارهم وحياتهم بالجد والعبوس ، منهم في الانجليزية ملتون ووردزووث وتنيسون ، وفي العربية المتنبي والشريف الرضي ؛ وأمثال أولئك عادة ذوو مطامع بعيدة يستغرق نشدانُها أنفسهم ، أو رسالات لا ينفكون عن النظر اليها ، أو مُثُلٌ عليا يُحسون أن التفكه يهبط بهم من عنانها

فخري أبو السعود